

تفسير ابن كثير

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه . (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) يقول : تصديقاً (وعلى ربهم يتوكلون) يقول : لا يرجون غيره . وقال مجاهد : (وجلت قلوبهم) فرقت ، أي : فرغت وخافت . وكذا قال السدي وغير واحد . وهذه صفة المؤمن الحق المؤمن ، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه ، أي : خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره . كقوله تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) [آل عمران : 135]

وكقوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)

[النازعات : 40 ، 41] ولهذا قال سفيان الثوري : سمعت السدي يقول في قوله تعالى :

إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال : هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال :

يهم بمعصية - فيقال له : اتق الله فيجل قلبه . وقال الثوري أيضا : عن عبد الله بن عثمان

بن خثيم ، عن شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء في قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر

الله وجلت قلوبهم) قالت : الوجل في القلب إحراق السعفة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال :

بلى . قالت لي : إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك ، فإن الدعاء يذهب ذلك . وقوله : (

وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا [وعلى ربهم يتوكلون]) كقوله : (وإذا ما أنزلت

سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون

([التوبة : 124] . وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهاها على زيادة

الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع على

ذلك غير واحد من الأئمة ، كالشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وأبي عبيد ، كما بينا ذلك

مستقصى في أول الشرح البخاري ، والله الحمد والمنة . (وعلى ربهم يتوكلون) أي : لا

يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ،
ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في
الملك وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ؛ ولهذا قال سعيد
بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان .